المحاضرة03: البعد الوطني والقومي في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

الوطن فكرة غافية لا يوقظها إلا الشعراء بالتحنان والغناء، وإذا كان الإنسان يرتبط شعوريا بالمكان الذي ينبت به، وتمتد فيه جذوره أو تسرح عليه حواسه، ومنه يوسع دائرته ليشمل رقعة عريضة تتمثل فيها عروبته وقوميته وخواصه الإنسانية والبشرية، وبالتالي تعميق وعيه وحسه الوطني والقومي لصناعة المثال والتعلق به، وهي صناعة شعرية في صميمها يصبح بوسع الإنسان عند ممارستها أن يرى ذاته وينشد أحلامه، ويشكل انتمائه للعالم العربي والإسلامي.

وللشعراء العرب المحدثين مسالك عديدة في تكوين حسهم القومي والوطني وتنميته، فهم «لا يقتصرون على تغذية هذه الحالة الفطرية بشكل مباشر إلا في اللحظات الصافية، عندما يرتدون في الزمن أو ينهلون من التاريخ»،[i] فكان الشعر العربي الحديث في مختلف محطاته المرآة الصافية والمحدبة لخطاب الجماعة في السلم والحرب، فقدم وظائف عديدة، إعلامية، وتواصلية، وفكرية، وتخييلية، وحتى الوجدانية الحميمية.

أولا- أسباب ظهور الوعي القومي والوطني.

مما لاشك فيه أن الفكر العربي بوعيه القومي مصدر القومية العربية في مراحلها المختلفة، عبر التطور التاريخي حسا وشعورا وتمردا أو انتفاضة وثورة، ولعل لهذا التطور أسباب أهمها:

1- الحكم الاستبدادي والاضطهاد السياسي الذي مارسه الحكم العثماني ضد العرب، مما أدى إلى بروز جمعيات علمية وأدبية تنشر الوعي القومي والوطني.

2- الحربين العالميتين وأثرهما في تطلع الأمة العربية إلى إنهاء الصراع مع قوى الاستدمار فشهد الوطن أكثر من ثورة عربية ضده.

3- هزيمة 1967 التي كان لها دور فعال في الانتقال بالموقف القومي من الاجتهاد النظري إلى محاولة التجسيد العلمي.

ثانيا- نماذج عن التحرر القومي والوطني في الشعر العربي الحديث.

التزم الشاعر العربي الحديث بقضايا أمته العربية، فقد كان للظروف السياسية التي مر بها العرب في العصر الحديث، أثر في بلورة الشعور القومي والوطني على حد سواء، سواء تعلق الأمر بالاحتلال الأجنبي للأرض العربية، لاسيما البريطاني والفرنسي أو الاستيطان الصهيوني[ii]، فكانت هذه الظروف جميعها سببا في بروز الشعر الوطني الذي كان رفيق المقاومة العربية ونهضتها، فلا نكاد نجد في القطر العربي شاعرا لم يشغله هذا الموضوع، وقد انغرست فيه ملامح العروبة ومشاعر الانتماء القومي، حتى أصبح المنظور القومي هو المدخل الأساس للولوج إلى عالم الشاعر الأدبي سواء على مستوى الموقف الفكري أو الأداة الفنية.

ومن هذا المنطق كان الشاعر العربي الحديث لسان حال شعبه يغضب له، ويثور لكرامته، ويفرح لانتصاره، كما كان الشاعر العربي القديم لسان حال قبيلته وعشيرته، يقول **أحمد شوقي** مخاطبا "دمشق" بوصفها رمزا للكفاح والنضال:[iii]

ألست –دمشق- للإسلام ظئرا ومرضعة الأبوة لا تعق.
صلاح الدين، تاجك لم يحمل ولم يوسم بأزين منه فرق.
سماؤك من حلي الماضي كتاب وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يشق
وللأوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق.

وهذه القصيدة كتبها أحمد شوقي بعد عودته من منفاه إلى مصر، حيث وقف إلى جانب الشعب السوري في تصديه للاستدمار الفرنسي، مبينا أن الشاعر العربي لا يرتبط بجغرافية وطنه وحدوده، وإنما يحلق بشعره في الوطن العربي كله، ويعبر عن الروابط المشتركة بين العرب.

وهذا **محمد محمود الزبيري*** يتغنى بثورة 14 تموز 1998 في العراق، مبينا أن الفرد العربي سليل الثورات العربية، مصورا إحساسه بأفراحهم وانتصاراتهم في كل قطر عربي، يقول:[iv]

صيحة الشعب في بلاد الرشيد أشعليها نارا وثوري وزيدي
ازحفي كالطوفان يا ثورة الشعب إلينا ودمدمي كالرعود
طهري جونا من الموت والصمت وهزي لنا بقايا لحود
إخوة نحن في القيود فهيا لنكن إخوة بخلع القيود.

وللأمة العربية في شعر **مفدي زكريا** تجل ناصع ومشرق، فمن خضم معركة الجزائر وثورتها الملتهبة ضد الاستعمار، بل ومن وراء القضبان في سجن بربروس الرهيب ينطلق صوت مفدي مجلجلا قويا، ينادي بحياة الأمة العربية، متألما لما يصيبها،[v] فيقول:[vi]

أما تنهد بالجزائر موجع آسى الشام جراحه و توجعا
واهتز في أرض الكنانة خافق وأقض في أرض العراق المضجعا.
وارتج في الخضراء شعب ماجد لم تثنه أرزاؤه أن يفزعا.
وهوت مراكش حوله وتألمت لبنان، واستدعى جديس وتبعا.

تكشف هذه المقطوعة عن وحدة الأمة العربية، حيث إذا تألم بالجزائر موجع أحس به من في الشام ومصر وأرض العراق، كما يرتج شعب تونس لهذا الألم ويهرع لمؤازرة إخوانه في الجزائر رغم ما يعانيه من جراح وآلام هو الآخر، وتسرع إليه دولة المغرب هي الأخرى، كما تتألم لبنان يحركها حبل الوصل بين قلوبهم.

وللشعراء الفلسطينيين القدح المعلى في هذا الجانب، فقد نظم **راشد حسين** قصيدة "من آسيا أنا"، والتي تدور حول نضال الشعوب في آسيا، وتعكس مد القومية العربية آنذاك، بزعامة الرئيس المصري الراحل "جمال عبد الناصر" يقول فيها:[vii]

من آسيا أنا، من بلاد الحب والدم والأماني
بلد الرجال الثائرين على مماطلة الزمان
بلد اللظى ومناجم الثوار لا بلد الغواني
بلد الذين تمردوا في وجه رب الصولجان
من آسيا أنا من تراب النار من لهب الحنان

وكانت الشهادة وتصويرها وسيلة لبث الوعي القومي والوطني عند **معين بسيسو**، ووسيلة لحث الرفاق على حمل السلاح ومواصلة الكفاح، فالاستشهاد لا يعد موتا بقدر ما هو حياة جديدة[viii]، ففي قصيدة "المعركة" يقول:[ix]

أنا إن سقطت فخذ مكاني ... يارفيقي في الكفاح
واحمل سلاحك لا يخفك ... دمي يسيل مع السلاح
وانظر إلى شفتي أطبقتا ... على هوج الرياح
وانظر إلى عيني أغمضتا ... على نور الصباح
أنا لم أمت أنا لم أزل ... أدعوك من خلف الجراح

ولأن اللغة العربية والتاريخ المشترك هي روح الوعي القومي والوطني وجوهره، فقد اتخذ **إبراهيم اليازجي** منها وسيلة للتنديد بأعداء الأمة العربية ساعيا إلى الاستقلال، حاثا أبناء العروبة على التمرد والثورة ضد الظلم وضد

الجمود واليأس والخذلان، يقول:[x]

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب
الله أكبر ما هذا المنام فقد شكاكم المهد واشتاقتكم الترب.
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

ولقد أثرت القصيدة في القراء، وأثارت منهم الهمم، لأنها عبرت عن مشاعرهم فأصبحت تجري على ألسنة الأجيال مجرى النشيد الوطني، بكل ما تحمله من دلالات قومية وسياسية وحتى أخلاقية.

واتخذ بعض الشعراء المحدثين من رثاء الزعماء وسيلة للتعبير عن عواطفهم القومية والوطنية، على نحو ما يقرأه المتلقي لقصيدة **نزار قباني** "قتلناك يا آخر الأنبياء" في رثاء جمال عبد الناصر، بعده واحدا من دعاة العروبة والمدافعين عن الوحدة العربية والقومية، يقول:[xi]

قتلناك يا جبل الكبرياء
وآخر قنديل زيت
يضيء لنا في في ليالي الشتاء
وآخر سيف من القادسية
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنا المنية
لماذا قبلت المجيء إلينا
فمثلك كان كثيرا علينا

وهذا الأمر يؤكده **"مفدي زكريا"** في إحدى قصائده حين يحي الرئيس "جمال عبد الناصر" في مستهلها طالبا منه مواصلة المسيرة وعدم التخوف من تهديدات الغرب وتحرشاتهم، فهو الأقوى والأقدر والكل يخشاه يقول[xii]:

قل يا جمال يردد قولك الهرم واحكم بما شئت تنجز حكمك الأمم
و اصدر بأمرك فالثالوث يرهبه واخفق بثغر الحمى يخفق به العلم
وأحفظ لمصر قناة في حشاشتها جرى قبل أن يجري البخار دم
وذد عن الحوض نصابين مافتئوا له يكيدون لا تنهاهم ذمم.

خاتمة:

في الأخير وبناء على هذه النماذج المقدمة نستطيع القول إن الشعر العربي الحديث يستلهم من الوعي القومي والوطني صوره ومعانيه، ودلالته في التعبير عن الروح العربية والإسلامية في كفاحها ونضالها، كل ذلك من أجل تحقيق حقها المشروع في أن تكون أمة حضارية وإنسانية تواكب الغرب وتنماز بتراثها وفكرها وتاريخها.

و الشعر هو الذي يحقق ذاته ويشبع حاجاته، وبدائله لا تغني شيئا عنه، وهذا هو اليقين الماثل بقوة في وعي الشعراء العرب المعاصرين، وتلك هي الرسالة التي تجلت في المتن الشعري لهم بالرغم من تعرضهم أحيانا لبعض الغيوم والشتات، لكنها ظلت ماثلة في ضمائرهم وهم يطلقون العنان لحلمهم من عمق التساؤل عن هموم وطنه وتحولات القومية العربية. باختصار تتداخل في إنتاج ثالوث الوطن والهوية والانتماء عند الشعراء العرب المعاصرين مجموعة من العوامل الفنية المهمة منها الرموز والألوان والأمكنة واللغة، كما تتضافر تراكمات تاريخية ومعرفية وثقافية لتقديم صورة هذا الثالوث في أنفاق النص الشعري.